كنيسة
الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج - اسكندرية

هل الكتاب المقدس وحده يكفى ؟!!

كلمات حول التقليد الكنسى

مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا رافائيل
الأسقف العام

آراء أرثوذكسية معاصرة (١)

الأرثوذكسية الشرقية وهو حالياً يخدم كقس في هيوستن في ولاية تكساس الأمريكية.

وهو في هذا المقال الذي بين أيدينا يكشف لنا عن الحالة المؤسفة التي آلت إليها المسيحية في الغرب البروتستانتي من كثرة الانشقاقات، التي وصلت إلى ما يزيد عن عشرين ألف طائفة بروتستانتية، والعدد ما يزال في تزايد! وكل هذه الطوائف لها أفكار وعقائد خاصة مختلفة عن الطوائف الأخرى، بالإضافة إلى ضعف الإيمان الذي حلت محلّه «العاطفة الإنسانية» و«العقلية المنطقية البشرية».... وكل هذه الأمور جاءت كنتيجة حتمية لرفض البروتستانت لفكر الكنيسة المذخّر في التقليد الرسولي الغني وتمسّكهم بفكرهم الفردي.

في هذا المقال يتحدث الأب «جون وايتفورد» عما يعتبره الأساس للفكر البروتستانتي وهو مبدأ "Sola Scriptura" (وهو مصطلح لاتيني ويعني «بالكتاب المقدس فقط»: "Scriptures Alone"). وهي فكرة بروتستانتية تدعو إلى الاعتداد بنص أسفار الكتاب المقدس فقط في الحكم على الأمور دون النظر إلى التقليد الرسولي أو تفسيرات الآباء الأولين أو خبرات الكنيسة السابقة عامةً. وعلى أساس هذا الفكر يقولون أنه لا وجود للأسرار أو الليتورجيات إذ يدّعون أنه لا توجد إشارة واضحة لهذه الأمور في الأسفار.

في هذا المقال يتكلم الأب «جون وايتفورد» عن أسباب فساد هذا المبدأ البروتستانتي، ويوضح الدلالات الكتابية والتاريخية التي تثبت

الكتاب المقدس والتقليد

الكنيسة الأرثوذكسية تسير في حياتها وفق التقليد المقدس، ولكن الكثيرون لا يستطيعون تعريف ما هو التقليد؟

كلمة «تقليد» "Tradition" مأخوذة من الكلمة اللاتينية "Traditio" التي هي ترجمة للكلمة اليونانية ,"Παραδοσιο" (Paradosis) وقد وردت هذه الكلمة كثيراً في الكتاب المقدس [1].

وهذه الكلمة تعني في معناها الحرفي ما يسلم من شخص لشخص كما تسلم العصا في سباق التتابع. الشيء الذي «يُقلَّد» هو ما يسلّمه الشخص (أو المجموعة) لشخص آخر (أو لمجموعة أخرى).

ويوضّح القديس بولس في رسالة غلاطية (غل ١: ١١) أن تقليد الكنيسة ليس «بحسب إنسان»، بل هو معلن من الله، فهو ليس اختراع البشر. والتقليد معناه الاختبار وحياة تعاش. ليس مجرد مجموعة من التعاليم ولكن اختبار هذه التعاليم التي أتت من الله الذي أعلن نفسه لنا. فالتقليد هو اختبار استعلان الله من خلال شعبه.

أين يوجد هذا التقليد؟ وما هي مصادره؟

---

١ – راجع (١كو ١١: ٢)، (١كو ١١: ٢٣)، (٢ تس ٢: ١٥).

المصادر الخمسة للتقليد المسيحي

١ - الكتاب المقدس:

المكانة الأولى من بين مصادر التقليد نعطيها للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. فالمسيحيين الأرثوذكس يفهمون الكتاب المقدس على أنه السجل الأساسي لخبرة شعب اللّه لإعلان اللّه نفسه لهم. من ذلك نفهم أن الكنيسة هي التي كتبت الكتاب المقدس. فالكتاب المقدس هو كلام الله ولكن كلام الله لم يُكتب بواسطة الله مباشرةً. فلم يهبط الكتاب المقدس من السماء في شكل كتاب كامل مكتوب!

ولكن ترى كتب الأسفار؟ كتبها بشر قادهم الوحي الإلهي. ما كتبوه هو الحق عن اللّه، فهم كتبوه كأعضاء من شعب اللّه. فمثلاً في السنوات الأولى للكنيسة المسيحية لم تكن الأناجيل - التي نعتبرها مهمة جداً - قد وجدت بعد. كان قد مضى عقود من بعد العنصرة قبل أن يُكتب أول إنجيل. ولم تُكتب الأربعة أناجيل إلا مع انتهاء القرن الأول، ومضى أكثر من ٣٠٠ سنة قبل أن تقرّ الكنيسة بوجود اربعة اناجيل فقط.

هذه الأسفار التي توجد في العهدين القديم والجديد موجودة في الكتاب المقدس لأن شعب اللّه - من خلال هؤلاء الذين انتُخبوا لتقرير ذلك الأمر - قرروا أن هذه الأسفار هي التي ستُعتبر كجزء من الكتاب

المقدس بخلاف أسفار أخرى مزورة (٢).

هكذا فالكنيسة كشعب اللّه - المسوق من اللّه - هي التي كتبت الكتاب المقدس. فالكنيسة هي التي قدمت لنا الكتاب المقدس.....!

فالأسفار المقدسة هي أهمّ وأسمى سجل مكتوب عن إعلان اللّه لشعبه، ولكن الأرثوذكس (٣) يدركون أننا لا نستطيع أن نفهم الكتاب المقدس بطريقة كاملة وحقيقية إلا إذا فهمناه من خلال الكنيسة التي كتبته وقررت قانونية تلك الأسفار. إذاً الكتاب المقدس هو كتاب الكنيسة وأول مصدر للتقليد المسيحي. وسنتكلم عن الكتاب المقدس بأكثر تفصيل لاحقاً.

٢ - الليتورجيا:

وهي المصدر الثاني للتقليد في الكنيسة. الـ «ليتورجيا» كلمة يونانية معناها «العمل الشعبي العام».

ليتورجيا الكنيسة هي عمل الكنيسة حين تجتمع لتكون شعب اللّه وتعبد اللّه. فالليتورجيا تحمل في مجملها كل الصلوات الكنسية العامة:

---

٢ – تم تحديد قانونية الاسفار من خلال المجامع مثل مجمع قرطاجنة في سنة ٤١٥م ومن خلال تعاليم الآباء كما في الرسالة الفصحية رقم ٣٧ للقديس البابا أثناسيوس الرسولي في سنة ٣٦٧م.

٣– على مدار هذا الكتاب ككل لا يُقصد بكلمة أرثوذكسيين طائفة بعينها، بل أصحاب الإيمان المستقيم المسلّم مرة واحدة للقديسين، والمتمسكين بالتقليد الأصيل للكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية. كما سيتم توضيحه فيما بعد.

خدمات ساعات اليوم (السواعي)، أيام الأسبوع، أيام الأعياد والمناسبات الكنسية والأسرار الكنسية (المعمودية، الافخارستيا، الزيجة...).

في كل هذه الصلوات الكنسية نرى بياناً بما تؤمن به الكنيسة. ففي الواقع يوجد قول شائع بين الأرثوذكس منذ القدم: «ما نؤمن به يعرف من خلال الطريقة التي نصلي بها». عندما يُسأل الأرثوذكسي: «بماذا تؤمنون كمسيحيين أرثوذكس؟» أو «كيف أتعرّف على ما تؤمنون به؟»، فلا تكون الإجابة: «تعال اسمع هذه العظة» أو «إقرأ هذا الكتاب». فرغم كون التعليم مهماً في حياة الكنيسة في الماضي وعلى الدوام، لكن الإجابة الأولى التي يعطيها المسيحي الأرثوذكسي دائماً هي: «تعال وانظر» Come and see.

هذه هي الدعوة الأرثوذكسية دائماً: تعال وانظر ما نفعله عند اجتماعنا الذي هو الكنيسة في عبادتها الليتورجية لله. أيِ شخص يتلامس مع اختبار العبادة الكنسية الليتورجية بعمق، سيثبت في الإيمان الأرثوذكسي عقيدةً وسلوكًا، أكثر مما يستطيع أن يمليه أي كتاب، ولا يستطيع أي شيء أن يغني عن هذا الاختبار.

هكذا هي الليتورجيا، المصدر الثاني للتعليم الكنسي.

٣ - المجامع:

المصدر الثالث من مصادر التقليد هو المجامع التي عقدتها

الكنيسة. فالمجمع هو عبارة عن اجتماع لهؤلاء الذي أُعطوا السلطان في الكنيسة ليقرروا ما هو أمين لتقليد الكنيسة وما هو ليس كذلك. وأول مجمع نراه في الكتاب المقدس (أع ١٥) انعقد في كنيسة أورشليم. لإتخاذ قرار حول موضوع إمكانية دخول الأمم إلي الإيمان المسيحي، وإن كان عليهم الخضوع للناموس اليهودي. لم يعدّ الرب يسوع رسله للتصدي لهذه المشكلة بالتحديد ولكنه أعطاهم السلطان في الكنيسة حتى يستطيعوا أن يُميِّزوا الأمور الصحيحة من الخاطئة. ولذلك اجتمع الرسل ليقرروا ماذا يفعل للأمم الذين يريدون الانضمام إلى الكنيسة.

نتيجة هذا المجمع كانت نوع من الحل الوسط وهو التزام الأمم ببعض المبادئ الأساسية التي في الناموس اليهودي دون تقييدهم ببقية الناموس. بالإضافة إلى ذلك، فقد وضّح الرسل أن قرارهم لم يكن مجرد قرار بشري إذ اجترأوا وقالوا «قد رأى الروح القدس ونحن....» (أع ١٥: ٢٨).

وكانت هناك عدّة مجامع خلال حياة الكنيسة الطويلة، وقد أوجدت حلولاً لكثيرَ من المسائل. وحلول تلك المسائل التي طُرحت جاءت في شكلين: قوانين إيمان creeds وقوانين مجامع canons.

قانون الإيمان هو تصريح عن الإيمان. وأهم صيغة إيمانية للكنيسة هي تلك المُوجِودة في قانون الإيمان النيقاوي. وتسمَّى بالنيقاوي لأن صيغته كُتبت في المجمع المسكوني الأول في نيقية سنة ٣٢٥م

(«مسكوني» معناه مجمع يجمع الكنيسة كلها في كل العالم).

وتلك المجامع كانت تصدر قوانين أيضًا: كلمة قانون "kanon" كلمة يونانية معناها مسطرة أو مقياس "yardstick" أي ما يستخدم لتحديد الممارسات العادية في الكنيسة. فالقوانين تعطي إجابات لمسائل مثل الانضباط والأخلاقيات في الكنيسة: ماذا يفعل عندما يسقط بعض الناس في الخطية؟ وكيف يمكن مصالحتهم مع الكنيسة؟ وماذا يفعل إزاء خلاف بين كنيستين كما كان يوجد خلافات في وجهة النظر بين الرسل أحياناً؟ كانت توجد دائماً اختلافات في الرأي بين شعب الله فأُناس الله وأن كانوا يتمتعون برؤية الله إلا انهم لا يصبحون كاملين في يوم وليلة وأغلبهم لا يحصلون على الكمال في حياتهم على الأرض.

إذاً في قوانين الكنيسة مجموعة من القوانين والأعراف تُنَظّم الانضباط في الكنيسة ومصدر تلك القوانين هي المجامع.

٤ - القديسين:

المصدر الرابع للتقليد الكنسي - وهو مصدر مزدوج أيضاً - هو حياة القديسين، وتعاليم مجموعة منهم الذين نسميهم بـ «الاباء» (وتلك المجموعة تضم بعض «الأمهات»). ففي كل جيل في حياة الكنيسة يوجد أناس عاشوا وصية المسيح بأمانة وبطولة، هؤلاء وهم يحيون في عالمنا هذا يبلغون إلى الغاية التي نحن نؤمن كمسيحيين أن الله

خلقنا لأجلها، وهي أن نكون شركاء في حياته.

الوعد الأعظم بخصوص الإيمان المسيحي أنه حق «وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يو ٨: ٣٢). مما سيحررنا الحق؟ يحررنا من الخطأ، من الخطية، من الفراغ وفي النهاية من الموت بمعناه السلبي. هذه هي الأمور التي يحررنا الله منها ولكنه فعل كل ذلك لنكون أحراراً لشيء أعظم: أن نصل إلى غايتنا ونكون شركاء في حياة الله نفسه.

يوجد أشخاص في الكنيسة بالطاعة الأمينة وفي كمال الإيمان والرجاء ومحبة الله أصبحوا أمثلة عظيمة لنا. نستطيع أن نسميهم أبطال الكنيسة. فالأيقونات في كنائسنا ترينا القديسين من كل عصر، هؤلاء القديسون حاضرون في الكنيسة وهم مصدر لخبرات الكنيسة لكي ما يرى المنتمون لكنيسة الله - من خلال هؤلاء القديسين - الطريق للحياة، الطريق إلى الحق. لنرى فيهم كيف يكون الطريق ممكنًا. فكما كان ممكناً للقديسين وهكذا يمكننا نحن أيضًا أن نصل إلى الغاية التي يدعونا الله إليها.

وتوجد مجموعة معينة من هؤلاء القديسين نسمّيهم «الآباء»، وعندما نقول «من آباء الكنيسة» نقصد شخصاً شهد لتقليد الكنيسة من خلال تعليمه لإيمان الكنيسة أو الدفاع عنه بحكمته وغالبًا يكون قد شهد لهذا التعليم بأتعاب كثيرة أو بتقديم حياته نفسها.

فعندما نقرأ الأناجيل نقول: نعم، ما هو مكتوب هنا في الإنجيل هو

ما آمنَتْ به الكنيسة في كل العصور. وبنفس الطريقة فعندما نقرأ كتابات الآباء العظام نرى فيها شهادة أمينة وحقّة لما آمنت به الكنيسة دائماً و اختبرته من اللّه.

٥ - الفن الكنسي:

المصدر الأخير للتقليد سنسميه «الفن الكنسي». وقد يأتي هذا المصدر كمفاجأة للبعض لأننا - مع أمور «مرموقة» كالكتاب المقدس واللتيورجيا والقديسين والآباء - نتكلم عن الفن الكنسي. فالفن في فكر بعض الناس مجرد نوع من «الزينة» أي شيء ثانوي. و لكن في المفهوم الأرثوذكسي لطبيعة الإنسان، عن كيفية تكوين اللّه إيانا وعن كيفية إعلان اللّه نفسه لنا، نرى أن الأشياء الملموسة لها دور كبير. نستطيع أن نقول أن الإيمان الأرثوذكسي والخبرة الأرثوذكسية هي خبرة شاملة: هي خبرة للإنسان بكامله، فالمادة المخلوقة لها دور. وفي الواقع فالتجسد ـ أي دخول اللّه إلي العالم المادي وصيرورة اللّه إنساناً وأن يكون اللّه شيئاً ملموساً ـ هو صلب ومركز الإيمان المسيحي.

والفن في تعريفه هو استخدام الأشياء المادية كوسيلة للإعلان عن الرب. إذاً ففي الأرثوذكسية الفن ليس مجرد تزيين ثانوي أو حلية، بل شيء في صلب مفهومنا عما نعرفه عن كيفية إعلان اللّه لنا عن نفسه. عندما يدخل أي شخص إلى كنيسة أرثوذكسية يجد نفسه محاطاً بأشياء كثيرة تجذب انتباه الحواس. نستطيع أن نقسمها إلى ثلاثة تصنيفات.

أولا الأيقونات: وهي الطريقة التي يُرسم بها شكل المسيح وأحداث حياته، وأمه والقديسين.

ثانيا الموسيقي الكنسية: وهي الطريقة التي تقال بها ألحان الكنيسة والمردات المستخدمة في الليتورجيات الكنسية.

وأخيراً البناء الكنسي: فحتى الطريقة التي تُبني بها الكنيسة بحسب التقليد شهادة واضحة لإيمان الكنيسة كما اختبرتهما الكنيسة عبر العصور. لم تأت هذه الأمور بالصدفة أو بدون ترتيب، ولكنها في قلب خبرتنا عن الكَنيسة كشعب الله.

فعندنا إذاً هذه المصادر الخمسة للتقليد الأرثوذكسي الذي سلمه جيل لجيل من المؤمنين، من المسيح والرسل إلى يومنا هذا: الأسفار المقدسة، الليتورچيا، قانون الإيمان والقوانين التي أتت من المجامع الكنسية، حياة القديسين وأقوال الآباء وأخيراً الفن المسيحي الأرثوذكسي.

وحدة التقليد

في مفهوم الكنيسة، كل هذه المصادر التي للتقليد مترابطة مع بعضها في وحدة واحدة، فلا نستطيع أن نأخذ الواحد بمعزل عن الآخر. فلا يستطيع أحد أن يقول «أستطيع أن أجد كل ما أريد أن أعرفه إن بقيت في البيت وقرأت الكتاب المقدس وحدي ولا حاجة لي للذهاب إلى الكنيسة»، ولا يستطيع أحد أن يقول أيضاً «كل ما أحتاجه

هو الذهاب إلى الكنيسة والنظر إلى الأيقونات ولا أحتاج أن أعرف شيئا عن الأسفار المقدسة». ففي كلتا الحالتين نأخذ شيئًا خارج مضمونه، خارج حدود عمله وإذا أخذنا شيئًا خارج نطاق عمله فسيفقد قوته.

ويستطيع الأرثوذكس أن يقولوا أن كل المشاكل وكل التعاليم الخاطئة وكل التطرفات الفكرية التي حدثت في الألفي سنة ـ التي لتاريخ المسيحية ـ حدثت بسبب أناس أخذوا مصدراً من مصادر التقليد المسيحي وعزلوها عن الباقي وتعاملوا معه كوحدة مستقلة بذاتها. فالكنيسة الأرثوذكسية ليست الكتاب المقدس وحده وهي ليست الليتورچيا فقط وهي ليست قانون الإيمان والمجامع والقوانين فقط. بل الكل يعمل معًا في وحدة واحدة وعندما نقبل كل هذه المصادر للتقليد كينبوع مشترك لإعلان الله عن نفسه، فنحن نؤمن أإننا سنُقبل إلى الحياة التي دعى الله خليقته إليها، إلى الغاية التي أعطاها لنا: أن نشترك في حياته، في شركة أبدية، لأنه أعطانا الحق الذي يحررنا.

الكتاب المقدس

يحتل الكتاب المقدس المكانة الأولى بين مصادر التقليد، وله كرامة أكثر بين مصادر التقليد. فالكتاب المقدس عبارة عن تجميع أسفار متعددة. فوجوده ككتاب واحد ظاهرة حديثة جاءت نتيجة لاختراع طابعة الكتب. في الكتاب المقدس نرى أسفاراً متعددة وكل سفر له محتوى مميز: نجد التاريخ والأشعار والأغاني والحكمة

مترجمة من النسخة العبرية وليس السبعينية، لذلك مِن الصعب أن نجد نسخة سبعينية إنجليزية للعهد القديم. فلماذا إذاً تصرّ الكنيسة الأرثوذكسية على أن تكون تلك الترجمة هي الترجمة الرسمية للعهد القديم؟

أولاً: لأن النبوّات التي تتكلم عن مجيء المخلص المسيا - وخصوصاً في المزامير والأنبياء - نجدها في هذه الترجمة أكثر حرفية وأكثر دقة وأكثر تركيزاً عن نظيرتها في النصوص العبرية التي للربيين. وفي الترجمة الإنجليزية (New King James Version) أو أي من الترجمات الإنجليزية الحالية نجدِ العهد القديم مترجماً عن النصوص العبرية التي حفظها الربيون والكتبة العبرانيون أما الترجمة السبعينية فقد ترجِمت من مجموعة مخطوطات عبرية أقدمِ ولكن تلك المخطوطات ليس لها وجود الآن. الترجمة السبعينية كتِبت قبل مجيء المسيح، وبالرغم من ذلك نجد أن النبوّات التي وردت فيها عن مجيء مخلص إسرائيل جاءت بأكثر قوة من النبوات التي في النصوص اللاحقة. والمسيحيون الأوائل رأوا في ذلك زيادة التحضير من الله لإعلان نفسه لإسرائيل. وبالطبع الاستعلان الأعظم لإله إسرائيل هو في مجيئه في شخص ابنه يسوع المسيح. فزيادة التركيز التدريجي في قوّة النبوات المسيانية التي نجدها في الترجمة السبعينية هو في فهم الأرثوذكس من إرشاد الروح القدس.

ثانياً: عندما يقتبس العهد الجديد من القديم نجد كل الاقتباسات

تقريباً بدون استثناء من الترجمة السبعينية. وفي حالة المزامير والأنبياء نجد الفروق بين النص العبري والنص السبعيني واضحة، لذلك فعندما نصلي المزامير أو نقرأ فصولاً من العهد القديم في الصلوات الأرثوذكسية نحرص على أن يكون ما نقرأه مطابقاً للنص السبعيني. ونأمل أن يأتي يوم تتوافر فيه ترجمة جيدة للنص السبعيني باللغة الانجليزية (٥).

ثالثاً: الوجه الآخر الذي للعهد القديم الذي يقبله الأرثوذكس هي «الأسفار القانونية الثانية» هذه الأسفار توجد فقط في الترجمة السبعينية وليست في النسخة العبرية التي للربيين. فأسفار كطوبيا وتكملة أستير وتكملة دانيال وسفري المكابيين، وحكمة سليمان و يشوع بن سيراخ ونبوة باروخ وصلاة منسى تعتبر جزءاً من العهد القديم كبقية الأسفار في الكنيسة الأرثوذكسية.

أما الترجمات البروتستانتية التي تضم تلك الأسفار فتسميها «الأبوكريفا» وأصل كلمة «أبوكريفا» تعني «المختفية». أما في الكنيسة الأرثوذكسية فنحن لا نستخدم هذا التعبير. ويستخدم البروتستانت هذا المصطلح للدلالة ضمنيا على أن هذه الأسفار ليست من العهد القديم وأنها «زائدة» أو أقل شأناً من الأسفار الأخرى. ولكن الأسفار القانونية

---

٥ – نفس الكلام الذي سبق ينطبق على القراءات الكنسية في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية كما ينطبق على الترجمات العربية المتوافرة في المكتبات حالياً.

والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهّبًا لكل عمل صالح» (٢ تيمو ٣: ١٥ – ١٧).

والذين يستخدمون تلك الآية لإثبات صحّة مبدأ Sola Scriptura يقولون أن هذه الآية تثبت وجوب الاكتفاء بالكتاب المقدس لأنه «إذا كان الكتاب المقدس قادراً أن يجعل الإنسان التقي كاملاً، إذاً فلا توجد حاجة للتقليد للوصول إلى الكمال والملء».

ولكن ما الذي نستطيع أن نقوله فعلاً على أساس تلك الآيات؟

أولا: بدايةً يجب أن نسأل عما كان يقصد بولس عند كلامه عن يقصد الكتب المقدسة التي عرفها تيموثاوس منذ طفولته. لايمكن أن يقصد العهد الجديد، لأنه لم يكن مكتوباً حين كان تيموثاوس طفلاً، بل أنه لم يكن قد اكتمل حتى زمن كتابة بولس لتلك الرسالة إلى تيموثاوس، ولم يجمع حينذاك العهد الجديد كما نعرفه حالياً... بالتالي نرى في تلك الآية وفي أغلب إشارات العهد الجديد إلى «الكتب المقدسة» أن بولس يقصد أسفار العهد القديم.

وهكذا إن كنّا نستخدم تلك الآية لتحديد الكتابات الموحى بها والملزمة لنا، فلن يتم استبعاد التقليد فقط بل أيضًا تلك الآيات نفسها بل والعهد الجديد كله!!

ثانيا: إذا كان بولس يرى التقليد كشيء غير مجدي، فلماذا نراه يقتبس من التقليد الشفاهي غير الكتابي في نفس هذا الإصحاح؟